

التل ببلاد المغرب الاوسط. قراءة في جغرافية المجال.

من القرن 2هـ / 8م إلى القرن 6هـ / 12م.

أ/ الطاهر طويل/قسم التاريخ/ جامعة باتنة 1.

tahar.touil2@yahoo.fr

الملخص

تشكل العلاقة بين الانسان والمجال منطلق الدراسات الجغرافية التي تهتم بالدرجة الأولى بالإقليم الذي يعيش فيه الفرد ويتفاعل معه. ويكون الزمن معيارا للوقوف على مستوى التغيرات التي تحدث فيه. وبالتالي تصبح هذه التغيرات مصدرا للجغرافية التاريخية للمجال. هذا الأخير الذي يمتلك إمكانية تسمح له بالتقليل من السرعة التي يتميز بها الزمن، وذلك عبر تجنب الانسياق وراء الأحداث الكرونولوجية دون الالتفات الى جوانب وخصائص هذه الاحداث. وتشكل هذه القاعدة منطلق فكرة "الزمن الطويل" لفرناند بروبال الذي لا يدعم التفسيرات الظرفية، لأنها لا يمكن أن تكون كاملة أو جازمة.

لذلك نجد أن بلاد المغرب الأوسط تحتاج الى دراسات مجالية لمختلف أقاليمها؛ ولعل "منطقة التل" تشكل أحد أهم هذه الأقاليم التي تتميز بخصائص تميزها عبر التاريخ الوسيط عن باقي المناطق الأخرى المجاورة لها. سواء شمالا حيث مجال البحر، أو جنوبا حيث نجد مجال الواحات والصحراء. فمنطقة التل أكثر المناطق تأثيرا في السياسة ومما اجباريا لبضائع الموانئ ببلاد المغرب الأوسط، ومسلكا هاما لتجارة القوافل. واستقطب مجال التل كل التحولات العمرانية، والتجارية، والسياسية، والمذهبية؛ فكان الفتح الإسلامي ربط المنطقة بشبكة علاقات جديدة كانت تتجه كلها نحو الشرق؛ سياسيا بحكم مركزية الخلافة الاسلامية، وكذلك دينيا وعقديا.

الكلمات المفتاحية. المجال. المغرب الأوسط. الإقليم. التل. الحدود

El-ttel in central Maghreb . a reading in the geography of space

2h-6h/ 6- 12ad.

Abstract

the relation between man and his space forms a start for the geographic studies concerned firstly with the area where he lives in and with, and time becomes a measure to check the level of changes happening in . this changes become a sours for the historical geography of the space. This later has the ability to slow the speed that characterises time, and all that throught avoiding following the chronological events without paying attention to their different sides and characteristics. This rule seprenebts the starting poit of the idea of “the long time” of Fernand braudel who is not for the momentary explanations because they can’t be complete or crucial.

So we find that the land of central Maghreb needs space studies for its different areas, and the “el-ttel region” is one of the most important of these areas which is known for its specific aspect throught the middle age compared with the other surrounding regions. Either north where there is the sea space, or south where we find the space of oases and sahara. El-ttel regions has more effect than the other regions in politics, an

obligatory access for the ports merchandise in the land of central Maghreb. And an important route for the commercial convoys.

key words. space. central Maghreb. El-ttel region. the border.

تشكل العلاقة بين الانسان والمجال منطلق الدراسات الجغرافية التي تهتم بالدرجة الأولى بالإقليم الذي يعيش فيه الفرد ويتفاعل معه. ويكون الزمن معيارا للوقوف على مستوى التغيرات التي تحدث فيه. وبالتالي تصبح هذه التغيرات مصدرا للجغرافية التاريخية. فالمجال يكون مكان تحقق المجتمع، ومحل تطور الواقع الاجتماعي، سواء في ارتباطه بمنطق الحراك الاجتماعي أو التبادلات الاقتصادية، إنه يشكل حيز شبكات التواصل القادرة على ضمان حد أدنى لاستمرارية العلاقات الاجتماعية ودوامها. كما أن المجال يمتلك إمكانية تسمح له بالتقليل من السرعة التي يتميز بها الزمن، وذلك عبر تجنب الإنسياق وراء الأحداث الكرونولوجية دون الالتفات إلى جوانب وخصائص هذه الأحداث¹. وتشكل هذه القاعدة منطلق فكرة "الزمن الطويل" لفرناند برودال الذي لا يدعم التفسيرات الظرفية، لأنها لا يمكن أن تكون كاملة أو جازمة². ويعتمد على تتبع الأحداث عبر مراحلها الطويلة للوصول إلى الحقائق العامة.

تطور المجال بالمغرب الأوسط

ببلاد المغرب وتحديدًا المغرب الأوسط تتنوع جغرافيا هذا الجزء ولذلك تحتاج إلى دراسات مجالية لمختلف أقاليمها؛ ولعل "منطقة التل" تشكل أحد أهم هذه الأقاليم التي تتميز بخصائص تميزها عبر التاريخ الوسيط عن باقي المناطق الأخرى المجاورة لها. سواء شمالا حيث مجال البحر، أو جنوبا حيث أين ينتشر مجال الواحات والصحراء، فمنطقة التل أكثر المناطق تأثيرا في السياسة وممرا إجباريا

لبضائع الموانئ ببلاد المغرب الأوسط، ومسلكا هاما لتجارة القوافل³. وطيلة القرون الثلاثة الأولى التي أعقبت الفتوح الإسلامية لم يزدهر التعمير بمناطق الساحل. حيث استقطب مجال التل كل التحولات العمرانية، والتجارية، والسياسية، والمذهبية؛ إذ كانت الأحداث السابقة لتاريخ المنطقة قد شكلت أثرا بعيد المدى في نفوس السكان المحليين الذين كانت التهديدات تأتيهم دوما وعلى مر التاريخ من البحر. فكان الفتح الإسلامي قد وضع حدا لهذه التهديدات وربط المنطقة بشبكة علاقات جديدة كانت تتجه كلها نحو الشرق؛ سياسيا بحكم مركزية الخلافة الإسلامية، وكذلك دينيا وعقديا.

يبدو أن المنطقة كانت تسكنها قبائل البرانس، وذلك بحكم استقرارهم في القرى الساحلية والتلية، والجبلية، والزراعية، وهذا من أهم مميزاتهم فهم يلجؤون إلى المناطق الصعبة تضاريسيا وهي الجبال العالية، وهذا ما أكده أغلب الجغرافيين والمؤرخين⁴ وقد أشار ابن خلدون ابن خلدون (ت1406/808)، فقال: "وبسفوح جبال هذا الإقليم استقر البربر الجبال في قرى متناثرة لاسيما في السفوح الشمالية للأطلس التلي المواجهة للساحل على غرار قبيلة كتامة الضاربة بجبال زاووة، وصنهاجة بجبل تيطري"⁵.

وطبيعي أن تستقر القبائل الجبلية بهذه المنطقة لما تشكل لها من فضاء مناسب لنمط عيشها؛ فقد كان البربر ببلاد المغرب "ملؤا البسائط والجبال من تلولة وأرياف وضواحيه وأمصاره"⁶، كما فرضت طبيعة المغرب الأوسط المتنوعة التضاريس على السكان الضارين بين السهول الفسيحة، والسفوح الشمالية لسلسلة الأطلس التلي، حيث تسود التربة الخصبة والمناخ المعتدل والأمطار الغزيرة، إضافة إلى وفرة المياه والمنتجعات الواسعة والغابات الكثيفة حياة رغدة نتيجة ملائمة الظروف الطبيعية،

فمارسوا الزراعة وامتهنوا صناعات متنوعة، واستقروا في بيوت مبنية من الطين والحجارة⁷. والحديث عن مجالات توطن هذه القبائل يجرنا حتما إلى الحديث عن الحدود الفاصلة بين مختلف هذه الجماعات. إذ نجد أن توزيع هذه القبائل كان منتشرا في كامل بلاد المغرب ولم يقتصر على إقليم دون آخر. ونجد أن هذا مرتبطا بمسألة الحدود الطبيعية لبلاد المغرب، حيث يتساءل أحد الباحثين⁸ عن علاقة الحدود الطبيعية بحدود الكيانات السياسية والدول التي ظهرت بهذا الفضاء، بمعنى هل التزمت حدود المراكز السياسية بحدود طبيعية معينة؟ هذه الإشكالية سنجدتها تتطور في تاريخ الكيانات السياسية التي قامت بالمنطقة المغاربية في العصر الوسيط. وسنقف على الكثير من النماذج التي تدلنا على مدى العلاقة المترابطة بين الحدود الطبيعية التضاريسية، والحدود السياسية للدول والإمارات التي تنتهي عند انتهاء المجالات الخاضعة والمالية لنفوذها.

اهتمت المصادر التاريخية والنصوص الجغرافية وكتب الرحالة المغاربة بالحدود، من خلال ذكر الحدود السياسية والإدارية للبلدان التي أدرجوها في كتاباتهم وضمن مواضيعهم، فأعطوا نظرة موجزة عن الحدود والتخوم⁹. ونشير إلى عدم استقرار هذه الحدود طيلة العصر الوسيط، فعلى سبيل المثال كان نطاق الدولة الفاطمية يمتد في البداية من طرابلس شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، ومن صقلية شمالا إلى سجلماسة جنوبا. والملاحظ أن هذا النطاق الواسع لم يكن دائما خاضعا للدولة، خاصة الجزء الغربي حيث كان يتقلص أحيانا عند مدينة تاهرت في المغرب الأوسط عندما تزداد قوة قبيلة زناتة المعارضة للسلطة. بل إن هذا النطاق انكمش في عهد الخليفة الثاني القائم بأمر الله (322-334هـ) وجزء من خلافة الخليفة الثالث المنصور (334هـ) أثناء ثورة صاحب الحمار حيث اقتصرت الدولة على العاصمة المهدية¹⁰.

وقد أشار الرحالة العرب إلى مناطق نفوذ الدول وما صاحبها من ولاء وطاعة، ولعل حلهم وارتحلهم ساعدهم على الوقوف على الحقائق التاريخية للحدود السياسية من خلال سلطة السلاطين والدعاء لهم في الخطب الدينية من جمعة وأعياد، أو الولاء أو روابط إدارية مثل جباية الأعشار والزكاة والتكاليف المخزنية. أو وجود ولاية للسلاطين أو نوابهم بالمنطقة. إضافة إلى مسألة سكة الدولة وإلى أي جهة ينتهي التداول بها¹¹. لعل هذه التنظيمات والإشارات الدالة على الولاء توحى بمدى سيطرة الدولة على المجال الذي تسيطر عليه.

أشار دومنيك فاليريون إلى أن الفهم المحض الذي تحدده حدود ثابتة ومعترف بها هو بداية مرفوضة. ففي العصر الوسيط بالغرب الغرب المسيحي كما في العالم الإسلامي، لم يتبلور بعد مبدأ السيادة الجالية المحددة بحدود المحيط الخارجي لأمة مدركة لنفسها بشكل كامل¹². لذلك نجد أن مسألة طرح الحدود في العصر الوسيط مسألة تخضع لكل المجال الذي تنتمي إليه دار الإسلام الذي تنتمي للخلافة الإسلامية.

كما نشير إلى عدم التزام تلك الكيانات السياسية الوسيطة بالمعطيات الطبيعية واعتبارها كعلامات لحدودها الجغرافية. ففي أواخر القرن 2هـ/7م. وفي عهد زيادة الله بن إبراهيم الأمير الأغلي الثالث¹³ (201 - 223هـ / 817 - 838م)، تمكن في الثلث الأول من القرن 3هـ/9م من تجاوز المتوسط ومد سلطانه إلى جزيرة صقلية. وتمكن أيضا محمد الثاني الأغلي (250 - 261هـ / 864 - 875م)، من ضم جزيرة مالطة وإلحاقها بمجال الدولة الأغلبية. وفي القرن الموالي لنجح الفاطميون في تجاوز عائق الصحراء ليتمد نفوذ دولتهم إلى سجلماسة التي كانت خاضعة عندئذ لحكم بني مدرار. وكان مجال المغرب الأوسط مقسما بين قوى مختلفة، امتزجت فيه القبائل بالنفوذ السياسي والمذهبي؛ فقد كانت جماعات الخوارج موزعة غربا متخذة من تيهرت عاصمة لهم. وكان مجال الأوراس وجزء من

إقليم كتامة ومنطقة الزاب تابعا للخوارج الإباضية الوهبية والنكارية. فيما كانت هذه الجماعات خاضعة للسيطرة الأغلبية. إذ كانت سلطتها تمتد إلى الحدود الغربية لجبل الأوراس عبر مجموعة من الحاميات¹⁴ من قبائل بني تميم. إن استمرار الجيوب المذهبية الإباضية ببعض مناطق بلاد المغرب لا يفسر فقط بفرار الإباضيين بمذهبهم إلى جهات لا تنالهم فيها سيوف مخالفيهم، كما هي الحال في استقرارهم بواحات بلاد المغرب الممتدة من المحيط الأطلسي إلى سيوة بمصر وبقمم الجبال بالأوراس ودمر وجبل نفوسة وجرية، بل بحرصهم على استمرار إمامتهم في الكتمان وتشبثهم بطاعة أئمتهم في هذا الطور من أطوار الإمامة عندهم بعد سقوط تاهرت في يد الفاطميين سنة 909/296.¹⁵

كما نجد أن الانتشار البدوي¹⁶ عاملا آخر ساهم في اندثار سريع للهياكل الحضرية التقليدية وتطورها نحو نمط جديد، فقد انتشرت القبائل البدوية في المناطق شبه الصحراوية والسباسبية، ومثلت بذلك ضغطا متواصلا على المدن التالية التي اعتمدت في حماية نفسها على مواقعها المتميزة مثل بجاية وقسنطينة والجبال المحيطة بها. ولم توقف هذه القبائل إلا الجبال الممنوعة مثل جبل سحاو (البابور حاليا والباب (البيبان) وجرجرة والأوراس، فاقترنت على الاستقرار بالسهول المحيطة بها موثقة الخناق على القبائل الجبلية. التي استسلمت لها تارة، وقاومتها طورا آخر. وبالتالي فإن تحول الطريق الأفقي الرابط بين مدن المغرب من الوسط إلى التلول الشمالية بعد سيطرة البداوة على السباسب، يعتبر أهم نتيجة للانتشار الهلالي¹⁷.

في القرن 5 / 11 امتد المجال السياسي المرابطي من الأندلس شمالا ليصل إلى مملكتي غينيا وتمبكتو في المجال الصحراوي مستفيدين من موقع عاصمتهم مراكش التي احتلت موقعا وسطا بين

المجالين. أما الموحدون فقد عملوا على الحفاظ على المجال المرابطي مع الحاق المجال الإفريقي الذي يمتد إلى مدينة طرابلس وما جاورها والتي تعتبر امتدادا طبيعيا وسياسيا لمنطقة المغرب وجزءا لا يتجزأ من المنطقة¹⁸.

وحاول بنو غانية الميورقيون¹⁹، إحداث شرخ في جسم الدولة الموحدية، والسيطرة على محور عمودي يمتد من ميورقة _ بجاية _ قسنطينة _ الزاب _ واحات المزاب، والجريد، وهو أشبه ما يكون بالمحور الذي أسسه المرابطون، وهو يمتد من غانة _ أودغست _ سجلماسة _ مراكش _ فاس _ قرطبة، ويربط بين المجال الصحراوي والمجال المتوسطي²⁰. حيث "قصد بني غانية قسنطينة فزحف إليه السيد أبو الحسن من بجاية فهزمه، ودخل قسنطينة، ودخل ابن غانية إلى بسكرة فقطع نخلها وافتتحها عنوة، ثم حاصر قسنطينة فامتنتع عليه فارتحل إلى بجاية وحاصرها، وكثر عبثه بإفريقية"²¹.

مع مطلع القرن 7هـ/13م تمكن بنو غانية من السيطرة على كامل بلاد إفريقية الممتدة من بونة إلى بسكرة، ومن تونس إلى طرابلس، واتخذوا قسبة تونس مقرا للحكم²²، لكن هذا الحلف البدوي بين الملتزمين وبني هلال وبني سليم لم يعمر طويلا²³. لأنهم سيهزمون في 602هـ، من طرف الخليفة الموحدي محمد الناصر (595-610هـ/1198-1213م) والقائد أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي²⁴.

وفي نفس القرن، ستعرف المنطقة انقسامًا بعد التفكك الذي أصاب الدولة الموحدية والذي أدى إلى انشطارها إلى ثلاثة دول، فإن الحفصيين مدوا مجال سيطرتهم إلى ما وراء بلاد الجريد والتي

تصنف ضمن مجال نوميديا، واستمر ذلك الوضع حتى زوال بني حفص وانتصاب العثمانيين بالمنطقة، فقد كان عثمان داي في بداية القرن 11هـ/17م يشرف بنفسه على زيادة تلك الأقاليم لتأكيد سيادته عليها وجمع الضرائب.

كل هذه الأمثلة التاريخية تبرز أن الجغرافيا لم تقف عائقا أمام التوسعية للكيانات السياسية المغربية، وأن العناصر الطبيعية لم تفرض على الحكام رسم حدود مناطق نفوذهم²⁵.

إقليم الأوراس والزاب وتحولات الفتوح الإسلامية.

بعد انتهاء العمليات العسكرية للفتوح الإسلامية ابتكر المسلمون تقسيمات جديدة لمناطق من المغرب بينما احتفظوا ببعض التقسيمات البيزنطية. وجاء هذا الابتكار بعد أن ظهرت أمصار ومدن جديدة مثل القيروان وفاس وتاهرت وسجلماسة وغيرها من الأمصار. كما كانت في نفس الوقت عواصم لدول، ثم أضحت عواصم لأقاليم إدارية بعد سقوط هذه الدول. لذلك فالتقسيم الإداري في بلاد المغرب يختلف من فترة زمنية لأخرى تبعا لتغير السلطة²⁶.

يمكن أن نحدد المجال الجغرافي لجبل أوراس من خلال حصر المدن التي ذكرت في المصادر الجغرافية على أساس التقارب الجغرافي، والتي وردت كمدن للأوراس، وهي التي تمتد من حدود إفريقية من الجهة الغربية حيث يذكر صاحب كتاب الاستبصار أن حد الأوراس شرقا هو مدينة شقنبارية²⁷. ثم تشكل الخط الفاصل بين المغرب الأدنى والأوسط. وتعتبر حدود المغرب الأوسط من الجهة الشرقية التي تمثلها مدن الأوراس طريقا يمتد من الشرق نحو الشمال انطلاقا من مجانة إلى تيجس نحو بلزمة²⁸.

ليعرج إلى داخل الجبل من مدينة نقاوس ثم زراي مروراً ببلزمة ومدينة زانة²⁹، ومنها إلى دار ملول، إلى دوفانة وهي قرية من جبل أوراس إلى قاعدة الأوراس باغاية، لتصل حدود المنطقة إلى الجنوب الشرقي عبر بسكرة وتقدر المسافة بين المدينتين بأربعة أيام⁴ (200 كلم)، ويذكر البكري أن بسكرة تحتوي مدن منها: جمونة (جمورة) وطولقة ومدينة بنطيوس، ومن قرأها قرية ملشون⁵ ثم مدن تهودة، وبادس، إلى مدينة نقرين³⁰.

ومنه يحد الأوراس من الشمال بلاد كتامة، ومن الجنوب تشكل منطقة مفتوحة على بسكرة وبادس وتهودة - من بلاد الزاب - المتاخمة لبلاد الجريد. أما شرقاً فتنتقل من مجانة إلى باغاية فتبسة، لكن غرباً فيصعب تحديدها لاتصال إقليم الأوراس ببلاد الزاب، لأن هذا الأخير يشكل امتداداً طبيعياً لتضاريس جبال الأوراس.

احتفظت منطقة التل الأعلى بدورها كمجال الصدام مع الأغلبية وممر للتوسع الشيعي فقبل أن يزحف عبد الله الداعي على وسط البلاد ليتبارى مع خصمه في صراع يبدو أنه سيكون حاسماً، بقي عليه أن يضمن لنفسه التحكم في باغاية ومجانة وتبسة، وغيرها من المدن المحصنة التي ما زالت تحول بينه وبين طرق المرور، انطلاقاً من الهضاب العليا الشرقية في ناحية قسنطينة إلى منطقة التل الأعلى الجبلية. وقد كانت العملية الأولى التي قام بها في ربيع سنة 295هـ/905م موجهة ضد باغاية. ولكنه ضمن لنفسه قبل ذلك استعداد أهل تلك المدينة للدخول في طاعته³¹. فقد سبق هذه المعركة عمل متواصل من الشيعة استطاعوا بفضل انتزاع إقليم واسع من السيطرة الأغلبية يتمثل في أغلب حدودها الغربية الممتدة خاصة في منطقة التل الأعلى وجبل الأوراس.

إلى الجنوب الغربي من إقليم الأوراس يوجد إقليم الزاب الذي كانت حدوده الشمالية في العهد الأغلبي تمتد لتشمل إقليم كتامة. وهذا الإقليم بشماله وجنوبه كان يجمع لوال واحد. أما حدوده الغربية فكانت تنتهي عند أراضي قبيلة بني بزال الزناتية التي ستبني عليها مدينة المسيلة³² التي أسسها القائم بأمر الله في خلافة والده عبيد الله المهدي سنة ثلاثة عشرة وثلاثمائة (925/313)، وقد تولى بناءها علي بن حمدون بن سماك بن مسعود بن منصور الجذامي المعروف بابن الأندلسي، وقد ولاه القائم عليها فمارس سلطة على الزاب كممثل ونائب للخلفاء الفاطميين، وبقي ابنه جعفر من بعده واليا على مدينة المسيلة وملك الزاب كله³³ إلى سنة (970 /360). ومنذ القرن 4هـ/10م أدت منطقة الزاب دور الثغر الذي عهد به منذ قيام الخلافة الفاطمية إلى ذلك الإقليم البعيد عن المركز، وإلى قاعدته المسيلة.

فقد كانت هذه المناطق (الزاب والحضنة) في البداية تحت سيطرة القبائل البربرية الإباضية، التي أسست ممالك مستقلة، وتحكمت في محور الطريق شرق- غرب، الذي يمر بمحاذاة المنحدر الجنوبي للتل، وعلى الخصوص منافذ الطرق الصحراوية. وسمح الفتح الفاطمي وفشل الثورات الخارجية للستار الذي أنشأته هذه الإمارات بتنشيط التجارة الصحراوية. لكن إخضاع المناطق الجنوبية لا يشير إلى عودة الطاعة الكاملة للحكم المركزي بهذا الحد. وبداية من تاريخ تأسيس مدينة بجاية ندرك أن التحكم بهذا القفل كان هدفا للتنافس والصراع المستمرين. ففيما مضى وجب على الناصر الحمادي الكفاح ضد زناتة التي عارضت حكمه في الجنوب، ووصول القبائل العربية عقْد نوعا ما الرهان. وظهرت الأهمية الاستراتيجية لهذه الجهة بطريقة جلية في وقت مغامرة بني غانية الذين استولوا على

الجهة وجعلوها واحدة من قواعدهم الخلفية. وأظهر الحكم في كل مرة أهمية كبيرة يوليها لها في التحكم بهذه المنطقة الجنوبية.³⁴

تعتبر بلاد الزاب منطقة شاسعة، تبدأ حدودها الشرقية المحاذية لجبل أوراس من مدينة طبنة القريبة من مدينة نقاوس³⁵، التي - طبنة - بينها وبين باغاية مسافة ثلاثة أيام (تقارب 150 كلم)³⁶، ومن طبنة نحو الغرب مدينة مقرة، ومن مقرة إلى قاعدة الزاب في العصر الفاطمي المسيلة، في وسط أرض بني برزال الزناتيين وبني كملان الهواريين³⁷.

وتشكل حدود الزاب من الجهة الغربية منطقة ممتدة الأطراف تتصل بتيهت عبر القبائل المتنقلة بين بلاد الزاب وتيهت، وبأرض بني زيري عبر نهر يسمى "جوزة" الذي يربط مدينة المسيلة بأشير³⁸. أما من الجهة الشمالية فتتوقف حدود الزاب عند بلاد كتامة، وتشكل عند الجنوب صحراء واسعة تصل إلى حدود بلاد الجريد ووارجلان وسدراتة.

الفاطميين ومحاولات إخضاع مجال المغرب الأوسط.

نجح الفاطميون في إقامة الملك السياسي الشيعي ببلاد المغرب في أرض كتامة التي تمتد من سواحل البحر الرومي (مرسى الحزر) شمالاً، إلى جبل أوراس وبلاد الزاب عبر سهول الحضنة جنوباً،

أما حدود أراضيها من الجهة الشرقية فتبدأ من قسنطينة³⁹ إلى ميلا فسطيف انتهاء عند بجاية غربا⁴⁰. ويضيف ابن خلدون أن من مدن بلاد كتامة القل، جيغل، سكيكدة⁴¹. وشكلت قلعة إيكجان من أرض كتامة مهد الدعوة الشيعية، التي تراجع دورها بعد نجاح الدعوة.

لقد وقع الإختيار على جيملة بأرض كتامة للقيام بالعمل الدعوي والعسكري لتوفرها على عوامل النجاح، فأرضها جبلية وعرة تصلح للعمل الدعوي السري كما تصلح للعمل العسكري لأنها تعز على الأعداء. كما أن وقوعها على طرف بلاد إفريقية، المستهدف الأول في العمل العسكري الفاطمي لأنها ولاية عباسية، فهي بعيدة عن رقادة قلب الإمارة الأغلبية، وفي ذات الوقت تقع على طرفها. وبالتالي تصلح كقاعدة لضرب الأهداف في الإمارة الأغلبية،⁴² ومعرفة حدود القبائل البربرية، يسهل علينا معرفة حدود قبيلة كتامة⁴³ باعتبارها قبيلة من البرانس في بلاد المغرب الأوسط، فقد حدد معالمها ابن خلدون في عصره "من حدود جبل أوراس إلى سيف البحر، ما بين بجاية وبونة"⁴⁴، أما القاضي النعمان فيشير إلى أن حدود كتامة على لسان أحد الحجاج الكتامين فقال: "أن حد بلادهم خمسة أيام طولاً، وفي ثلاثة أيام عرضاً"، كما وصفوا الأمصار القريبة منهم وهي: بلزمة، سطيف، ميلا، بأنها على حدودهم⁴⁵.

ولذلك نجد أن هذا المجال شديد التنوع ربط بين البحر وبلاد الساحل في الشمال بمجموعة من المراسي. وفي نفس الوقت سيطرت على مجموعة من حواضر الجبال بالأوراس، والنمامشة، والسهول العالية بين أطلس التلال وأطلس الصحراء جنوباً.⁴⁶

يمكن أن نشير إلى أن الخلفاء الفاطميين قد حافظوا تقريبا على النظام الإقليمي السابق للأغالبية في المغرب الأوسط مع اتخاذ سياسة وحدة الدولة⁴⁷، بعد أن حاولوا السيطرة على بلاد المغرب من شرقه إلى غربه. ولتعيين وتحديد الأقسام الجغرافية لبلاد المغرب الأوسط، يمكن أن نضبط المصطلحات التي لها مدلول جغرافي وإداري في العصر الفاطمي لإعطاء صورة دقيقة لتلك الأقاليم ومن تلك المصطلحات نجد عبارات "البلد" و"الأطراف" و"العامل" حيث يطلق البلد على منطقة ممتدة الأطراف مثل بلاد الزاب، وتطلق الأطراف على المناطق الواقعة في تخوم البلاد⁴⁸، الخارجة عن طاعة السلطة مثل عاصمة الرستميين سابقا "تيهت" والمدن الواقعة حولها كتانس والشف، إفكان.

لم تستثن التغييرات الجديدة للفاطميين مفردات المجال فبعدها نجحت الدولة في الانتقال من مراحل "دار الهجرة" أصبحت بعد 296هـ / 908م، لديها مناطق "الأطراف" و"العمالات" و"الولايات" و"الكور" هذه المفردات الجغرافية التي سادت في أراضي الخلافة الفاطمية بعد القضاء على ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد عام 336هـ / 947م واستمرت إلى مرحلة خلافة المعز لدين الله (341-362 / 953-972) بعد أن سيطر على الأطراف والقبائل التي كانت تثير الفتنة والعصيان⁴⁹. أما باقي أجزاء المغرب الأوسط فإنها تشمل مدن وقلاع، كمدن جبل أوراس التي كانت تشكل مراكز جبلية محصنة.

لذلك فإن بوبة مجاني ترى أن حدود الدولة الفاطمية في فترات قوتها لم تتعد المدن الواقعة على أطراف الصحراء مثل سجلماسة والمسيلة، وبسكرة وطبنة وبلاد الجريد، وهي المدن التي تتحكم في مسالك تجارة الذهب بين بلاد السودان والمغرب⁵⁰. إن الدولة الفاطمية التي حكمت منطقة شاسعة بمذهب مخالف للمذاهب التي يدين بها أهلها، كما أن جغرافيتها وانتماءاتها تنوعت فتنوع اقتصادها واختلفت حياتها المعيشية، وتعاملت السلطة الجديدة مع هذا التنوع والاختلاف بما يخدم أهدافها الحيوية⁵¹.

التل وامتداداته في العهد الزييري (القرن 5-11/6-12)

في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر ميلادي، وتحديدًا عام 440هـ/ 1047م- 1048م التي تجمع المصادر على أنها بداية فعلية للقطيعة المذهبية والسياسية بين الفاطميين بمصر والزييرين ببلاد المغرب، إذ ستلوه سلسلة من الإجراءات في اتجاه تعزيز القطيعة النهائية بين القيروان والقاهرة. ثم انقسام الدولة الزييرية الصنهاجية (362-543هـ/ 973-1148م) إلى إمارتين منفصلتين بعد استقلال الحماديين بالقلعة ثم بجاية. ستتغير حدود المجالات ببلاد المغرب الأوسط جذريًا نتيجة المعطيات الجديدة المتمثلة أساسًا في تأثيرا المحجرات الهلالية على إمارات المنطقة سياسيًا. وعلى المستوى الاجتماعي نشطت حركة الانتقال والتنقل للجماعات والقبائل نتيجة تمسكها بنمط العيش الرحلي أو نتيجة الضغوطات المستجدة نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي.

إن هذا التغير الجذري الذي حدث في توطن القبائل وانتعاش الحركة والانتقالات الناتجة عن الهجرات التي ميزت القرن 5هـ/11م. سيؤدي أيضا نقص الجماعات الكتامية في بلاد المغرب الأوسط، وذلك بفعل الهجرات المتعددة التي شهدتها خلال العصر الوسيط بداية من انتقال الدولة الفاطمية من بلاد المغرب إلى مصر، فكان انتقال هذه الدولة متبوعا بانتقال جماعات كتامية كبيرة، ظهر نقص عددها في بلاد المغرب الأوسط من جهة، كما ظهر تزايدها في بلاد المشرق، إضافة إلى هجرات متتالية لقبائل كتامة وفروعها إلى كل من المغربين الأدنى والأقصى تبعا للظروف والمصالح، وكذلك كان الانتقال واضحا نحو الشمال إلى بلاد الأندلس، فكان تركز هذه الجماعات في المراكز والكور الأندلسية أكبر دليل على حركات الانتقال هذه، ومن هنا يمكننا القول أنه كان هذا الانتقال بصمة واضحة للمجال الكتامي شهدها العديد من المؤرخين والجغرافيين والرحالة في ذلك العصر.

كما نشير إلى أن بقايا الجماعات الكتامية بعد الهجرات السابقة إلى مختلف الأقطار والجهات، شكلت فرعين أو مجموعتين أساسيتين هما: مجموعة سدويكش، ومجموعة بني ثابت، واحتلا مجالا واسعا في بلاد المغرب الأوسط، يمكن القول بأنه غطى بعض الشيء على النقص الذي خلفه الكتاميين بهجراتهم العديدة، فكان كل من سدويكش وبني ثابت، إضافة إلى بقايا أخرى من القبائل الكتامية متناثرة هنا وهناك في أرجاء المغرب الأوسط، لكن بعد كل ما عرفه المغرب الأوسط من انقسامات وصراعات سواء أكانت سياسية، أو اجتماعية، أو مذهبية، وكذلك بسبب الهجرات المختلفة، وعلى الرغم من التغيرات التي عرفتها هذه القبائل من مد وجزر وخضوع وانفصال للسلطات المركزية، فإن المجال الكتامي اتضح في بلاد المغرب الأوسط، واستقرت حدوده ومعالمه الرئيسة، فكان يتموقع في الحدود الشمالية الشرقية لبلاد المغرب الأوسط، مشتملا على مدن ساحلية شمالية، وأخرى داخلية جبلية.

وفي مدة قصيرة من سنة 1052/443 تاريخ وصول بني هلال إلى حدود إفريقية إلى سنة 1064هـ/457م تاريخ هزيمة الزيريين في سببية تغيرت هياكل المجتمع في إفريقية والمغرب الأوسط. وهو انقلاب كبير، ترتب عنه اختلال التوازن بين المدنية والظعن وبين الساحل والداخل. وأصبحت

السواحل تستقطب المدن لا سيما العواصم. فتغيرت الجغرافية العمرانية. لذلك لم يعد من الممكن أن يتواصل وجود القلعة وسط مجتمع رحل غير قادر على هضم سلطة الحكومة ولا يتعامل مع المستقرين إلا بمنطق اليد العليا. ولم تعد السلطة الحمادية نفسها قادرة على مراقبة الجهات التابعة لها. وانعكس ذلك على الحياة الاقتصادية؛ إذ أصبحت القلعة معزولة تجاريا بعد أن اضطرت المسالك التجارية⁵².

لذلك حدث تراجع بالمنطقة وصل حد الانهيار شمل كل بلاد المغرب، واختلف حول أسبابه، فالتراجع لم يكن وليدة القرن 10هـ/16م، بل يمكن الرجوع بها إلى بداية القرن 5هـ/11م، بعيد رحيل الفاطميين إلى القاهرة وظهور كيانات سياسية أظهرت عجزها عن التصدي للقوى الغازية على غرار الاحتلال النورماني أو إيقاف زحف القبائل العربية البدوية. وبدا الانهيار أكثر وضوحا بعد تفتت مجال الدولة الموحدية وتشظيها إلى ثلاثة كيانات سياسية منفصلة راسمة الحدود السياسية والجغرافية لدول شمال إفريقيا الموجودة اليوم⁵³.

ويمكن إدراج مسألة الخضوع للسلطة وحالة الانفلات التي تفتشت بفعل انتشار البدو، لذلك تنوعت طبيعة ودرجة الخضوع للحكم. ومن الواضح أنه كلما ابتعدنا عن بجاية تنحصر سلطة الدولة أكثر. ففي الجنوب حيث أكثرية السكان رحل، تصبح حدود تطبيق القانون وممارسة الحكم في الفضاء وعلى الرجال الذين يشغلونه ويقطعون غامضة. ولم يصبح التحكم فعالا حقيقيا إلا عن طريق روابط مبايعة شيوخ القبائل للحكم المركزي⁵⁴.

في الأخير يمكن أن نسجل أن المجال ببلاد المغرب الأوسط تطور منذ القرن الأول الهجري/السادس ميلادي؛ فقد تحمل إقليم التل التحولات الأولى الناتجة عن معارك الفتوح الإسلامية والتي استمرت إلى نهاية القرن. لنجد أن أهم أحداث القرن 7/2 جرت بنفس المنطقة خاصة ما تعلق

بأحداث عصر الولاة ونشاط دعاة المذاهب العقديّة المختلفة، حيث نجحت في تأسيس الملك بكل من تيهرت وتلمسان وانقسام باقي المنطقة على باقي الفرق المذهبية مثل النكارية بنواحي الأوراس والوهبية وجماعات المعتزلة بطولقة وبسكرة. وبذلك شكل هذا الإقليم مستقرا للثوار في البداية ثم مجالا مهما للدعاة وبعد ذلك أصبح معبرا للتجار.

مع أواخر القرن 9/3 تظهر قبيلة كتامة كجماعات مناصرة لدعوة الشيعة وكمجال طرقي ينجح في تغيير كل جغرافيا المنطقة والسيطرة على إفريقية بعد 908/296م، مع بقاء المد والجزر في حدوده الغربية حيث نشاط زناتة المدعمة من أمويي الأندلس. ورغم نجاح بعض الثورات مثل ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد في تحجيم المجال الفاطمي ببلاد المغرب، إلا أنها فشلت في الأخير في السيطرة على مجالها بفضل نجاح تحالفات لجماعات جديدة خاصة الصنهاجية.

الهوامش

- 1 اختلفت تعريفات الجغرافية التاريخية حسب طبيعة البحوث ويورد عبد الفتاح محمد وهيبة مجموعة تعاريف تطورت انطلاقا من اعتبارها كعلم قائم بذاته يهتم بتتبع الحدود السياسية، والخرائط وتسمية المظاهر الجغرافية والمسح الكرتوجرافي الى أن يكتسب الإقليم أو المجال أو فقدانها ... عبد الفتاح محمد وهيبة. الجغرافية التاريخية بين النظرية والتطبيق. دار النهضة العربية. بيروت. 1980. ص 10 11.
- 2 فرناند برودال. المتوسط والعالم المتوسطي. تعريب. مروان أبي سمرا. دار المنتخب العربي. ط1. 1993. لبنان. ص 157.

³ pierre Salama. *Les Voies romaines de l'Afrique du Nord*, Missions archéologiques Gouvernement général de l'Algérie. Gouvernement général de l'Algérie, 1951. P33 35.

- 4 ابن عبد الحليم. كتاب الانساب. تحقيق محمد يعلى. المجلس الأعلى للأبحاث العلمية الوكالة الاسبانية للتعاون الدولي. مدريد. 1996. ص 95. 97.

- 5 عبد الرحمن بن خلدون، العبر، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. دار لافكر للطباعة والنشر والتوزيع. 1421. 2000، الجزء 6، ص 153
- 6 بن خلدون. المصدر نفسه. ج 6 ص 116.
- 7 عبد الحميد الفهري، البربر الجبال في العصور الوسطى، أعمال ملتقى دولي في التاريخ، 2002م، ص 143
- 8 عادل النفاقي. المجتمع والجغرافية الثقافية لبلاد المغرب. حفريات في أدب الرحلة - القرن 16. في الهوية والتدين والثقافة. إفريقيا الشرق. الدار البيضاء. المغرب. 2015. ص 77.
- 9 محمد ماكامان الرحلات المغربية القرنين 11-12هـ_ 17-18 م. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس اكدال. مطبعة الأمنية. الرباط. ط 1. 2014. ص 476
- 10 بوبة مجاني. النظم الإدارية للخلافة الفاطمية في مرحلتها المغربية خلال العصر الفاطمي. 296-362هـ/ 909-973م. دار بهاء الدين للنشر والتوزيع. الجزائر. ط 1. 1430هـ. 2009م. ص 212.
- 11 محمد ماكامان. المرجع نفسه ص 476 477
- 12 بجاية ميناء مغاربي. ترجمة عمارة علاوة. منشورات المجلس الأعلى للغة العربي. الجزائر 2014. ص 71 72.
- 13 محمد الطالبي. الدولة الأغلبية، التاريخ السياسي. 184-296هـ/ 800-909م. تعريب. المنجي الصيادي. دار الغرب الإسلامي. بيروت. ط 02. 1995. ص 185. 196. 293. 299.
- 14 امتدت هذه الحاميات عبر شبكة من الحواضر من باغاية بلزمة مقررة طبة بسكرة. وهي التي كانت تشكل قديما الحدود بين موريطانيا السطيفية ونوميديا. حول هذه المدن والحصون انظر stéphane gzell. Atlas archéologique de l'algerie tome1. Texte, 2^e édition. Algerie. 1997.
- 15 حسن حافظ العلوي. مراجعات حول الصراع السني الإباضي ببلاد المغرب. الصراع المذهبي ببلاد المغرب. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء المغرب. ط 1 2008. ص 83 84.

16 ناقش الأستاذ عمارة علاوة إشكالية الهجرة المالكية وأخضعها إلى الفحص الدقيق من خلال تناول أغلب الدراسات التي شملت الموضوع في مقال بعنوان (الهجرة المالكية وإشكالية انحطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط. قراءة في نقاش تاريخي). علاوة عمارة. دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. 2008. ص 7-33.

17 محمد حسن. المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي. جامعة تونس الأولى. كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية. 1999. ج 1 ص 36 37.

18 عادل النفاثي. المرجع السابق. ص 77 78.

19 حول حركة ابن غانية انظر. هويثي ميراندا. التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية. ترجمة عبد الواحد اكدير. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء المغرب. ط 1. 2004. ص 385. 393.

20 محمد حسن. نفس المرجع. ج 1 ص 45.

21 ابن خلدون. العبر ج 6 ص 329.

22 امبروسيو هويثي ميراندا. التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية. ص 385. 394.

23 محمد حسن. المرجع السابق. ج 1 ص 48.

24 عز الدين عمر موسى. الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم. دار الغرب الإسلامي. لبنان. ط 1. 1411. 1991. ص 145.

25 عادل النفاثي. المرجع السابق. ص 78.

26 بوبة مجاني. النظم الإدارية للخلافة الفاطمية. ص 216.

27 هي مدينة الكاف حاليا على الحدود الغربية لتونس. مجهول. كتاب الاستبصار في عجائب الامصار. وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، تح سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة الأعظمية، بغداد. ص 165.

28 ابن حوقل (أبي القاسم بن حوقل النصيبي البغدادي ت ق 4 هـ): صورة الأرض، دار الحياة، بيروت، 1992، ص 84.

29 البكري: المصدر السابق، ص 50.

- 30 البكري . نفس المصدر. ص 256. 288.
- 31 فرحات الدشراوي: الخلافة الفاطمية بالمغرب (296-365هـ / 909-975م) التاريخ السياسي والمؤسسات، ترجمة حمادي الساحلي، ط1، دار المغرب الإسلامي، بيروت، 1994، ص 142.
- 33 البكري: المصدر السابق، ص 59.
- 34 دومنيك فاليريون. بجاية ميناء مغاربي. ترجمة عمارة علاوة. منشورات المجلس الأعلى للغة العربي. الجزائر 2014. ص 180 181.
- 35 ابن حوقل: المصدر السابق، ص 85.
- 36 القاضي النعمان: المصدر السابق، ص 175.
- 37 ابن عذارى المراكشي (أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري ت 712هـ): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح، س. ج. كولان وليفي بروفنسال، ط3، دار الثقافة، بيروت، 1983، ج1، ص 190.
- 38 البكري: المصدر السابق، ص 61.
- 39 ابن خلدون . العبر . ج6، ص 195.
- 40 ابن حوقل: المصدر السابق، ص 85. ابن خلدون: المصدر نفسه، ج6، ص 195.
- 41 ابن خلدون . العبر، ج6، ص 196.
- 42 بوبة مجاني. من قضايا التاريخ الفاطمي في دوره المغربي. دار بهاء الدين للنشر والتوزيع. منشورات مخبر البحوث والدراسات في حضارة المغرب الإسلامي. جامعة قسنطينة. ط1. 2007. ص 151.
- 43 يقول ابن خلدون عن هذه القبيلة بأنها: " من قبائل البربر بالمغرب، أشدهم بأسا وقوة، وأطولهم باعا في الملك عند نسابة البربر، من ولد كتام بن برنس ويقال كتم.... وكانت بطونهم كثيرة يجمعها كلها غرسن ويسودة ابنا كتم بن برنس". عبد الرحمن بن خلدون، العبر، الجزء6، ص195). ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبي عبد الله بن عبد الله الرومي البغدادي . معجم البلدان . ط 02 ، دار الفكر ، بيروت ، 1995 ، المجلد1، ص367، أبي عبيد البكري، المسالك والممالك، 1993م، ص329، أبي القاسم بن حوقل النصيبي، صورة الأرض، ص91

- 44 ابن خلدون، العبر، الجزء 6، ص 195
- 45 القاضي النعمان (أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي ت 363هـ) : افتتاح الدعوة ، تح، فرحات الدشراوي، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص 3736.
- 46 مجهول، الاستبصار، ص 162، ليون الإفريقي ، الحسن بن محمد الوزان الفاسي. وصف إفريقيا. ط 02، ترجمة محمد حجي و محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي ، لبنان، 1983 الجزء 2، ص 63
- 47 فرحات الدشراوي: الخلافة الفاطمية بالمغرب. ص 465.
- 48 القاضي النعمان. افتتاح الدعوة، ص 335-336.
- 49 بوبة مجاني. النظم الإدارية للخلافة الفاطمية. ص 213.
- 50 بوبة مجاني. المرجع نفسه. ص 215.
- 51 صالح بعيزيق. بجاية في العهد الحفصي. دراسة اقتصادية واجتماعية شوف النتزنت باقي معطيات الكتاب ص 49 50.
- 52 عادل النفاقي. المجتمع والجغرافية الثقافية لبلاد المغرب. حفريات في أدب الرحلة - القرن 16. في الهوية والتدين والثقافة. إفريقيا الشرق. الدار البيضاء. المغرب. 2015. ص 37.
- 53 دومنيك فاليريون. بجاية ميناء مغاربي. ص 166.
- 54 دومنيك فاليريون. المرجع السابق. ص 166.